

صيد الخاطر

283 - - فصل : الكمال للخالق وحده .

سألني سائل قد قال بعض الحكماء : من لم يحترز بعقله هلك بعقله فما معنى هذا ؟ فبقيت مدة لا ينكشف لي المعنى ثم إضح .

و ذلك أنه إذا طلبت معرفة ذات الخالق سبحانه من العقل فزع إلى الحس فوق التشبيه . فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فيعلم أنه لا يجوز أن يكون جسما و لا شيئا . و إذا نظر العاقل إلى أفعال الباري سبحانه رأى أشياء لا يقتضيها العقل مثل الآلام و الذبح للحيوان و تسليط الأعداء على الأولياء مع القدرة على المنع و الابتلاء بالمجاعة للصالحين و المعاقبة على الذنب بعد البعد بزلة و أشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضها العقل على العادات في تدبيره فيرى أنه لا حكمة تظهر له فيها . أن يقال له : أليس قد ثبت عندي أنه مالك و أنه حكيم و أنه لا يفعل فيقول : بلى . فيقال : فنحن نحترز من تدبيرك الثاني بما ثبت عندك في الأول . فلم يبق إلا أنه خفي عليك وجه الحكمة في فعله .

فيجب التسليم له لعلمنا أنه حكيم .

حينئذ يذعن و يقول : قد سلمت .

و كثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الأول فاعترضوا .

حتى إن العامي يقول : كيف قصى على سوء عاقبتى ؟ و لم ضيق رزقي ؟ .

و ما وجه الحكمة في إبتلائي بفنون البلاء ؟ .

و لو أنه تلمح أنه مالك حكيم لم يبق إلا التسليم لما خفي .

و لقد أنس ببديهة العقل خلق من الأكابر أولهم إبليس فإنه رأى تفضيل النار على الطين

فاعترض .

و رأينا خلقا ممن نسب إلى العلم قد زلوا في هذا و إعتضوا و رأوا أن كثيرا من الأفعال

لا حكمة تحتها .

و السبب ما ذكرنا و هو الأنس بنظر العقل في البديهة و العادات و القياس على أفعال

المخلوقين .

و لو استخرجوا علم العقل الباطن و هو أنه قد ثبت الكمال للخالق و انتفت عنه النقائص و

علم انه حكيم لا يعث لبقي التسليم لما لا يعقل .

و اعتبر هذا بحال الخضر و موسى عليهما السلام لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات

أنكر موسى و نسي إعلامه له بأني أنظر فيما لا تعلمه من العواقب .
فإذا خفيت مصلحة العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق فأولى أن يخفى علينا كثير من
حكمة الحكيم .
و هذا أصل إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الإعتراض و الكفر و إن ثبت إستراح عند
نزول كل آفة